خطـــــاب العتبـــــات في روايـــــة "زيـــنب"

الدكتور عبد الحق بلعابد
أستاذ اللسانيات والترجمة
قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر

ملخص

يدخل هذا البحث ضمن مقاربة خطاب عتبات النصوص السردية،وقد اخترنا لذلك نصا سرديا تأسيسيا في الرواية العربية،رواية (زينب) لنجيب محفوظ،التي عرفت دراسات نقدية عديدة،لذا أردنا قراءتها من خلال مداخلها النصية،والتي أصبحت ضرورية لفهم أي نص.

لهذا قمنا بتحليل العناصر المناصية التالية :(اسم الكاتب،التقديم،العنوان،الإهداء)، والعلاقات التي تنسجها مع نصها،كما بيّن ذلك ج.جينيت في كتابه (عتبات).

Résumé

Discours de Seuils
Roman ZAINAB de NAJIB MAHFOUD

Cette recherche est incluse parmi les approches du discours de seuils des textes narratifs. On avait choisi un texte fondamentale dans le roman Arabe qui est (ZAINAB) de NAJIB MAHFOUD ,qui était étudié par plusieurs approches critiques, de là on voulait le lire à partir de ses entrées textuelles, qui est nécessaire pour comprendre tout genres de textes .

Quant aux éléments paratextuel qu'on avait analysé dans ce texte : (le nom d'écrivain, l'introduction, le titre, le dédicace) et ses relations avec le texte, comme a monté G. Genette dans son livre (Seuils).

مجلة منتدى الأستاذ: المدرسة العليا للأساتذة في الآداب و العلوم الإنسانية ،سطح المنصورة،25000، قسنطينة، الجزائر
الهاتف /الفاكس:98 29 62 31 (0) 213 00
e-mail :bouhrourh@yahoo.fr / bouhrourh@gmail.com

عتبة منهجية

ما تزال رواية زينب لمحمد حسين هيكل تثير الكثير من الأسئلة داخل المؤسسة النقدية العربية،خاصة سؤال البدايات في السرد العربي الحديث،وهل فعلا تعد رواية زينب الراوية الفاتحة للسردية العربية ؟(1)،كما أثارت أسئلة حول الشكل المغاير الذي قدمت فيه،أمام أشكال وأساليب كانت في طور الأفول التي ورثت من السردية العربية القديمة(المقامات،الرحلة....).

فرواية زينب منجم من الأسئلة لا بد من إعادة مساءلتها قراءة لموقعتها داخل خارطة تاريخ الأدب العربي الحديث،والتفكير فيها من داخل النظرية الأدبية،لهذا أردنا مساءلة بعض المناطق فيها،وهي مناطق اللاحسم والتردد،التي دائما ما يغفلها الدارسون،كاشفين عن خطاب العتبات في هذه الرواية،وكيفية تشكله في نص/كتاب زينب،ليقع اختيارنا على اسم الكاتب،وعنوان الرواية،والإهداء كمداخل لفهم النص الروائي،متخذين من التقديم الذي وضعه هيكل للرواية موجها قرائيا للخروج من عتمات هذه العتبات.

1- عتبة تقف عند العتبة

قبل البدء في تحليل هذا الخطاب العتباتي لرواية زينب،لا بد من فهم الدور المنوط بالتقديم كآلية إجرائية لتفهيم باقي العتبات المشتغل عليها،فالتقديم أو مقدمة الكتاب يعد عنصرا مهما من عناصر المناص(paratexte) الذي درسها "ج.جينيت" في كتابه (عتبات)(2)،حيث جعله يحدد غرض الكتاب،ما يريد الكاتب بثه من أفكار،وعرضه لخطة عمله/كتابه،إلى جانب وظائفه المحركة لشعريته وتداوليته،وهي المعول عليها في تحليل عتبات رواية زينب،إذ مقدمة الكتاب/الرواية تعمل على إرشادنا للكيفية التي نقرأها بها،كما تضمن لنا قراءة جيدة لها أيضا(3):

1- الوظيفة التكوينية،وهي التي تكشف لنا عن كيفية تكوين الرواية ونشأتها.

2- وظيفة اختيار الجمهور،وإن كان الكاتب لا يعرف جمهوره،فيمكن تحديده من خلال الإشارة إليه في التقديم،كما فعل حسين هيكل (توجيه هذه الرواية لشباب مصر).

3- وظيفة التعليق على العنوان،إذ يقوم هذا التقديم بشرح وتفسير ما جاء مجملا وغامضا في العنوان،قصد تهيئة القارئ لتقبله.

4- وظيفة ميثاق التخييل،المفاتيح القرائية التي يتواثق بها الكاتب مع قارئه داخل النص السردي،وتسعفه على تأويل عالمه الروائي.

5- وظيفة المؤشر السياقي،أي السياق الذي تنخرط فيه هذه الرواية.

6- وظيفة التصريح بالقصد،أي تصريح الكاتب في هذا التقديم بما يقصده ويتقصده من عمله الإبداعي.

2- اسم الكاتب...بين الخفاء والتجلي :

يعد اسم الكاتب من بين العناصر المناصية التي درسها "ج.جينيت"(4)،لهذا لا يمكننا تجاهله أو تجاوزه،لأنه هو وحده من يثبّت هوية الكتاب/الرواية لصاحبها،وبه يحقق ملكيته الفكرية والأدبية،سواء أكان هذا الاسم حقيقيا أو مستعارا،وهذا ما سيمكننا من فهم اشتغال اسم الكاتب في رواية زينب الذي طرح مشكلا في أول ظهورها،فقد أخذ شكلين :

* الشكل الأول (الاسم الحقيقي) :

وهو الاسم الحقيقي الدال على الحالة المدنية لصاحب العمل أي محمد حسين هيكل،وهذا ما تحركه وظيفة التسمية الذي تسكن صفحة الغلاف(أو صفحة العنوان) والطبعة التي بين أيدينا يعلو لقب الكاتب(هيكل) دون اسمه(5)،وهذا دليل على شهرة الكاتب وتداول اسمه،لأن اسم الكتاب أصبح عبارة عن واجهة إشهارية تقرأ بصريا،تحفز القارئ على اقتناء الكتاب/الرواية،فيمكن لأي قارئ أن يسأل

الكتبي (هل عندك رواية لهيكل ؟)، فسيذهب الذهن مباشرة إلى الكاتب محمد حسين هيكل،وهذا ما تحركه الوظيفة الإشهارية والتداولية كما قلنا لاسم الكاتب.
غير أننا نريد أن نعود لبدايات ظهور هذه الرواية،أو إلى عنوانها البدئي (مناظر وأخلاق ريفية) التي لم يذكر فيها هيكل اسمه بل استعار اسما آخر حملها بدلالة وطنية،وهو الشكل الثاني الذي يتخذه اسم الكاتب.

*** الشكل الثاني (الاسم المستعار) :**

وهو اسم للشهرة يستعمله كثيرا الفنانون والكتاب،تقية،وهو مثله مثل الاسم الحقيقي يدل على هوية صاحبه،وتنجم عنه ملكية فكرية وأدبية،وهو من الظواهر التي وجدناها عند الكتاب ومن بينهم محمد حسين هيكل،الذي سمى نفسه وهو ينشر روايته زينب لأول مرة (بمصري الفلاح)،ولكن هذا الاسم لم يأتي اعتباطا،ولكن له أسباب وأهداف،كما وردت في مقدمة الرواية كنص شارح ومعلق لهذا العنصر المناصي :

*** أسباب التردد :**

1- التردد الشديد في نشرها،ووضع اسمه عليها بعد عودته من باريس منتصف 1912.

2- إلا أن السبب الخفي الذي لم يعلنه هيكل، لم يعلن عنه التقديم،هو ما جاء في المسكوت عنه فيه :

" كنت فخورا بها حين كتبتها وبعد إتمامها،**معتقدا** أني فتحت بها في الأدب المصري فتحا جديدا،**فظل** ذلك رأيي فيها طوال وجودي طالبا للحصول على دكتوراه الحقوق بباريس،فلما عدت إلى مصر منتصف سنة 1912،ثم لما بدأت أشتغل بالمحاماة...بدأت أتردد في النشر..." [مقدمة الرواية، ص11].

فهناك إشارات خفية لا بد من قراءتها،وهي اعتقاد هيكل وهو في المهجر بباريس،أنه ما كتبه سيفتح أفقا جديدا للأدب المصري والعربي عامة،لما اطلع عليه من مرجعية سردية وجمالية تغاير السردية العربية التقليدية،وبقي هذا رأيه حتى دخوله مصر،ولكن في تلك الفترة كانت مصر تعرف حراكا على المستوى الإبداعي وبالخصوص الجنس الروائي أي بين 1909 – 1912،علما أن قبل مسافرة هيكل أي في سنة 1905 صدرت رواية بعنوان القصاص حياه للكاتب عبد الحميد البوقرقاصي،وبعدها بسنة صدرت رواية محمود طاهر حقي أي سنة1906 بعنوان لست هناك،فاعتقادنا يذهب أن هيكل لم يكن بعيدا عن هذا الحراك فيمكن أن يكون اطلع على هذه الروايات قبل أو بعد رجوعه،مما تركه يتأمل ويتروى في نشر روايته،فهو يقول لولا :

" **حبي الفتي لهذه الثمرة من ثمرات الشباب،انتهى بالتغلب على ترددي،ودفع بي لأقدم الرواية إلى مطبعة "الجريدة" لتنشرها...** "[مقدمة الرواية،ص 11].

*** الاسم بين التقديم والتأخير :**

يتقصد الكاتب محمد حسين هيكل الإعلان عن اختيار هذا الاسم المستعار من خلال التقديم كما مر بنا،وإن كان يرى أنه لا يخلو من غرابة وشعور شاب في مقتبل العمر،لهذا يقول في التقديم :

" **أنه قدم كلمة "مصري" حتى لا تكون صفة للفلاح، إذا هي أخرت فصارت "فلاح مصري"** [مقدمة الرواية،ص12].

وهذا جاء ردا على الطبقة البورجوازية في ذلك الوقت،التي كانت تنظر إلى الفلاحين بنظرة احتقار،ولا يمكن لغيرهم أن يعتلي سدة الحكم في مصر،وهذه فكرة سادت قبل الحرب العالمية الأولى من القرن الماضي،فكان الهدف من وراء هذا :

" ...**أن استظهر على غلاف الرواية التي قدمتها للجمهور يومئذ والتي قصصت فيها صور ومناظر ريف مصر وأخلاق أهله...أن المصري الفلاح يشعر في أعماق نفسه بمكانته وبما هو أهل له من احترام ،وأنه لا يأنف أن يجعل المصرية والفلاحة شعارا له يتقدم به للجمهور به ويطالب الغير بإجلاله واحترامه** "[مقدمة الرواية،ص12].

ولكن كل هذا سينجلي بعدما رسخت في أذهان الناس فكرة "**المصرية**" مع ظهور الحركة الوطنية،فلم يعد مانعا أن يستظهر محمد حسين هيكل اسمه على غلاف الرواية،ولا أن يعيد طباعتها باسمها الجديد القديم زينب،بعد انتقاله كذلك من مهنة المحاماة إلى الصحافة والكتابة.

3- دينامية العنوان الروائي :

يعد العنوان من بين المداخل الأدبية التي تشغل الدارسين الآن(6)، كونه من أهم مباحث خطاب العتبات لا يمكننا تجاوزه إلى غيره دون مساءلة.

لهذا سنحلل رواية محمد حسين هيكل انطلاقا من الخطة السابقة، ولكن الاستثنائي في هذه الرواية، والذي يجرنا إلى سؤال مهم في خطاب العنونة، وهو كيف يتحول ما كان عنوانا أصليا ليصبح عنوانا فرعيا والعكس ؟ فهل من منطق تحليلي يحتكم إليه،أو طريقة تأليفية ينشرط بها ؟.

وهذا ما وجدناه سمة بارزة في هذه الرواية، التي تتداول الآن بعنوان زينب وتحت عنوان فرعي (مناظر وأخلاق ريفية).

* تحديد العنوان :

فالعنوان الروائي سمة للكتاب الذي يحمله،كونه رسالة سننية في حالة تسويق،تنتج عن التقاء ملفوظ روائي،بملفوظ إشهاري،فيه تتقاطع الأدبية والاجتماعية(7)،يأتي في الغالب مختصرا،دالا على نصه ومنتزعا منه،مكثفا له في آن،وهذا ما عليه رواية محمد حسين هيكل.

فكل عنوان روائي يمكن أن يكون له عنوان فرعي،وعناوين داخلية،كما يمكن لهذه الأخيرة أن تختفي،وهذا راجع إلى الخيارات الجمالية والتجريبية للكاتب،كما سينسحب تحديدنا للعنوان الرئيسي على العنوان الفرعي،إلا فيما يخص الوظائف المحركة لهما.

فإذا رجعنا إلى رواية زينب سنجدها أول ما ظهرت في بعنوان (مناظر وأخلاق ريفية) كعنوان رئيسي لها،دون أن تتخذ عنوانا فرعيا،إذ يحمل هذا العنوان بنيتين سرديتين،بنية مكانية،وأخرى قيمية،لأن محمد حسين هيكل أراد من خلاله كما جاء في التقديم أن يقص فيها للجمهور :

" صورا لمناظر ريف مصر وأخلاق أهله...وليروا فيها قصة مصرية تصف لهم ناحية من حياة بلادهم وتدلهم على صور من الجمال فيها لم يسبق الكاتب إلى وصفها..." [مقدمة الرواية،ص12].

ليبرز لنا هذا التقديم وظيفة التسمية التي تعد من بين الوظائف المهمة للعنوان،كما قام هذا التقديم بالتعليق عليها والكشف عن غرضها وإن كان العنوان لمح له فقط،وليستمر هيكل في هذا التعليق في باقي التقديم من ذكر لمرجعياته الكتابية والأسلوب الذي اعتمده في الكتابة،وقصديته التي لم يخفها على جمهور قرائه.

*** الخروج إلى العنوان :**

نجد بأن عنوان رواية هيكل كان موجودا إلا أنه لم يرد الإعلان عنه للأسباب المذكورة سالفا،ليكتفي بعنوان (مناظر وأخلاق ريفية) الذي نسميه داخل الجهاز العنواني **بالعناوين الوقتية**(8)،وهي تلك العناوين التي يضعها الكتاب مؤقتا ريثما يجدون عنوانا مناسبا لعملهم الإبداعي،أو أن يختاروا عنوانا من هذه العناوين ويستقرون عليه،وربما غيروه في الطبعات اللاحقة للكتاب،وهذا ما يعرف بالنص القبلي(avant-texte) أي لما يكون الكتاب/النص مخطوطا،فيقع الكاتب في تلك الحيرة والتردد في اختياره لعتباته ومنها العنوان...

فكان عنوان محمد حسين هيكل المناظر عنوانا وقتيا،فما فتئ أن عدل عنه في الطبعات اللاحقة،ليظهر العنوان الرئيسي/الحقيقي (زينب) كعنوان حامل لبنية الشخصية الرئيسية في الرواية،مع احتفاظه بالعنوان السابق ليصبح عنوانا فرعيا (مناظر وأخلاق ريفية) محركا به وظيفة الشرح والتفسير للعنوان الرئيسي.

فزينب هي فتاة(مصرية) و(فلاحة) تعيش في (الريف المصري) وتحمل(أخلاق أهله) ليقوم العنوان الفرعي بإيضاح ما اختصره وكثفه العنوان الرئيسي ليضمن للقارئ القراءة الجيدة للنص/الرواية وينخرط بسهولة في عوالمه التخييلية.

فالعنوان الرئيسي يسأل (من هي زينب)،والعنوان الفرعي يلمح بالتفسير،كأنه يقول هي فتاة مصرية تعيش في ريف مصر وتحمل أخلاقه،ليجيب النص الروائي ككل عن هذا العنوان،فالعنوان يكتف،والرواية تفسر(بأمكنته،وأزمنته،وشخصياته).

فقليل هي الروايات التي غيرت عناوينها في طبعاتها اللاحقة، أواحتفظت بهما معا كما فعل محمد حسين هيكل،فلا بد من دراسة جادة لمعرفة نظام العنونة في الرواية العربية لضبط جهازها المعرفي والتحليلي.

4- حركية الإهداء في رواية زينب :

الإهداء هو الآخر أحد عناصر المناص التي درسها "جينيت" وبين وظائفه وأشكاله(9)،إذ اعتبره تقديرا من الكاتب وعرفانا يحمله للآخرين على صنيعهم معه،سواء أكانوا أشخاصا واقعيين و اعتباريين،وهو تقليد قديم إتخذ أشكالا عديدة منها الإهداءات السلطانية، والإهداءات العائلية،,الإهداءات الإخوانية وغيرها.

وإذا أردنا تقسيم الإهداء وفهم أشكاله فهو لا يخرج عن قسمين اثنين،إهداء عام وإهداء خاص(10)،وكلا الإهداءين وجدناهما في عتبات رواية زينب لمحمد حسين هيكل.

1- الإهداء العام :

وهو ذلك الإهداء الذي يتوجه به الكاتب (محمد حسين هيكل) إلى الشخصيات المعنوية،والهيئات والرموز،فكان إهداءه موجها بالدرجة الأولى إلى وطنه رمز العطاء والخلود ومرتع الصبا،و ساحة الشباب،ومنبر الرجولة،وهو يقول عنه وعن الرواية في التقديم :

" **زينب إذن ثمرة حنين الوطن وما فيه،صورها قلم مقيم في باريس مملوء مع حنينه لمصر** ..."[مقدمة الرواية،ص15].

ليأتي إهداء الرواية متخذا المعادلة الإهدائية التالية : [**إلى،س،ص،....من**]،أي إلى مصر(المهدى إليه) من الكاتب(المهدي)،وسنتتبع هذه الصيغ الإهدائية التي جاء بها هيكل :

أ- **إلى مصر....**

لتأتي بعدها صيغ الإهداء الثواني :

* إلى هذه الطبيعة المتشابهة اللذيذة(ريف مصر).
* إلى هؤلاء الذين أحببت وأحب (أهل ريف مصر).
* إلى بلاد بها ولها عشت وأموت(مصر).
* إلى مهبط وحي الشعر والحكمة أول الأزل(مصر).

ب- **إليك يا مصر....**

* من أجلك كتبتها.
* ولأكتبها عشت.
* فهل تقبلين هذه الهدية الضئيلة...
* ولمصر نفسي ووجودي.

فنجد أن هذا الإهداء الوجداني من رجل يحب وطنه وشعبه،يحمل وظيفتين اثنتين؛ الوظيفة الأولى هي وظيفة دلالية تحمل كل المشاعر والأحاسيس الصافية التي يكنها الكاتب لوطنه الذي عاش في كنفه وترعرع في أرضه،فله حياته ومماته،وله

نفسه ووجدانه،فلا يستطيع أن يهديه أكثر مما أهداه،فهذا إهداء متواضع عارف بالجميل راد له ولو بكلمات من القلب.

2- الإهداء الخاص :

أما الإهداء الخاص فهو الذي يتوجه به الكاتب لأشخاص مقربين منه،إما أفراد عائلته أو أصدقاءه(11)،وقد طالعنا هيكل بإهداء خاص مازج إياه بإهدائه لمصر،فجاء الإهداء الخاص لأخته،وآخر لأحبابه،فهو يقول فيه :

أ- **ولأختي أهدي هذه الرواية....**

* أنت أول من أحببت من شباب مصر.

ونجد أن الإهداء لم يخرج عن تضمينه للمهدى إليه الرمز وهي (مصر،الأخت الأم،الزوجة...) .

* ولأختي قلبي وروحي...

ليخص كذلك بإهدائه أصدقاءه وأحبابه،بإهداء إخواني جاء فيه :

ب- **ولمن أحب أهدي هذا القسم من نفسي والذي احتل سنين شبابي الأولى.**

وهذا الإهداء قريب مما يعرف بالإهداء الذاتي،أين يهدي الكاتب أعماله إلى نفسه،كما فعل جويس في أحد إهداءاته " إلى خالص روحي،أهدي أول أعمالي"،وهذا الإهداء قلما نجده عند الكتاب عامة.،فهيكل يعترف بأن هذا العمل قطعة من روحه ونفسه كما جاء في الإهداء والتقديم :

لأن"... **هذا وغيره من صور الصبا المرسومة في زينب يمثل شبابي،ولذلك أحن اليوم إليه حنين القلب إلى مثوى محبوب ذهب ولن يعود.**" [مقدمة الرواية،ص13].

لنجد أن هذا الإهداء الخاص تحركه هو أيضا تلك الوظيفة الدلالية التي تكشف لنا عن العلاقة الحميمية الموجودة بين المهدي(هيكل)،والمهدى إليهم أخته التي لها قلبه وروحه الممثلة لشباب مصر من جهة،ومن يحبهم من أصدقائه أهدى إليهم قطعة من نفسه وهي هذه الرواية من جهة أخرى.

لتجمع بينهما الوظيفة التداولية التي عملت على تمتين الصلة بين المتهادين،وترسيخ المودة بينهم،فأخته التي تمثل شباب مصر ذلك الأفق المتحرر الحالم،وأصدقاءه فخر ذلك البلد المجيد،الذي أثمر شجره،وأينع زهره،أفصح شعره،ونفذت حكمته،فالإهداء في البدء والمنتهى بريد المتحابين.

خاتمة :

بعد هذه الرحلة في عتبات رواية زينب التي اكتشفنا فيها كيفية اشتغال هذه المناصات (التقديم،اسم الكاتب،العنوان،الإهداء)، في رواية تعد فاتحة الروايات في تاريخ الأدب العربي الحديث،التي طاعتنا بأسئلة جعلتنا نفكر بعمق في مدى وعي الكاتب العربي بعتباته،وكيف تصبح هذه الأخيرة منطقة للتردد والحيرة لدى الكاتب،لتنجلي هذه الحيرة بتكوّن وعي فاهمة للمسلك التجريبي الذي تعتمده هذه العتبات،كونها طرائق مغايرة للقول/للكتابة السردية.

هوامش البحث :

1- عبد الله إبراهيم،السردية العربية الحديثة،تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة تفسير النشأة،المركز الثقافي العربي،ط1،سنة 2003،الدار البيضاء،المغرب،ص259-294.

* نجد أن عبد الله إبراهيم قد تتبع في الفصل المخصص لرواية زينب كل الراحل التي مرت بها هذه الرواية مع التشكك في ريادتها لما أتى عليه في دراسته لسرديات القرن التاسع عشر وما عرفه من روايات،كما درس أسلوبها ودلالاتها،وتعرض إلى أسباب التي أدت بهيكل إلى إخفاء اسمه وعنوان روايته.

- ينظر أيضا :

عبد المحسن طه بدر،تطور الرواية العربية الحديثة في مصر(1870-1938)،دار المعارف،ط4،سنة 1983،مصر،ص322-337.

* وقد خصص فصلا لرواية زينب التي عدها ترجمة ذاتية،باحثا عن منابع الرواية، ودوافع كتابتها،وعلاقة هيكل بطبيعة الريف المصري وأثرها في الرواية،إلى غير ذلك من دراسة الفنية للرواية.

ينظر أيضا :

* جابر عصفور،زمن الرواية،دار المدى،ط1،سنة 1999،دمشق،سوريا،ص 87-88-89 وما بعدها.

2- G.Genette,seuils,ed. du seuil,paris,1987,pp.147-153.

3- المرجع نفسه،ص200-203.

4- المرجع نفسه،ص41-42.

5- محمد حسين هيكل،رواية زينب،موفم للنشر،ط1،سنة 1987،الجزائر.

6- G.Genette,seuils,ed. du seuil,paris,1987,pp.43-70..

7- Christian Achour,Simon Rezzoug,convergences critiques(introduction à la littéraire),ed.O.P.U ,Alger,janvier,1990,p.28.

8- G.Genette,seuils,ed. du seuil,pp.69-70.

9- المرجع نفسه،112-120.

10- المرجع نفسه،ص120.

11- المرجع نفسه،ص133-134.